على هامش معالم التقريب (*)

العلم والذكر، لا الكهانة

يبدو أن الانسياق وراء الطابع الحسى السائد فى هذه الدنيا، والتأثر بالفخامة والأبهة والقوة والاقتدار، قاسم مشترك بين البشر بعامة، ومع ذلك فإن الإسلام بمنظومة أحكامه، وسير الصالحين بمر الزمان، قد طبع الإعجاب بهذه النماذج فى نفوسنا، ومازلنا نسمع فى أعماقنا ـ كما يقول محمد عبدالله محمد فى معالم التقريب ـ أصوات آبائنا الأولين، ومازالت نفوسنا تؤثر نماذجهم الفريدة العالية الزاحرة بالقوة المترفعة فى فقرها، المتعالية على المال والمادة أو الراهدة فيهما وفى السلطان المستند إليهما أو المستمد منهما . قد نصفق ونعجب بالفخم كما صفق السابقون، وننبهر بعره وأبهته، ولكن قلوبنا لا تزال تخفق كما خفقت قلوب آبائنا، وما عساها تخفق قلوب أبنائنا من بعدنا ـ إعزازا وإجلالا لرجل عظيم سامق العظمة عالى القامة والمهابة .. لم يخجل من الفقر، ولم يخشه حين ولى أمور الناس، فحمل فقره معه وحوله، سواء فى حياته الخاصة أو حياته العامة، وجابه به الدنيا بأسرها فى وقار لا صلف ولا عقدة فيه، وفى طمأنينة خالية من الادعاء، وعفة خاشعة مجردة من الاستعراض، ومجردة من الزهو بما كان له من هيبة الصدق فى العبودية لله والإخلاص والشجاعة فى الولاء له سبحانه وتعالى وللمسلمين الذين وكلوا إليه أمورهم فحمل عنهم همومهم، ولم

(*) المال ٢٠١٠/٩/٧

يبحث عن استيلاد الهيبة من الفخامة أو الأبهة اللتين أغرق وأمعن فيهما كثيرون، ولم يبح لنفسه أن يتقاضى على مهمته العظمى التى نذر لها حياته ونهاره وليله إلا النزر القليل، فى الوقت الذى أعطى فيه للناس ما ميزهم به على أهل بيته . فلم تكن حياته ولا حياة أولاده وأزواجه وذريته بأعز عنده من حيوات الناس، بل كان يعطى لهؤلاء ما لا يعطيه لأهله . سهر لتنام الرعية، وشقى لترتاح، وراعت صورته صاحب كسرى حين رآه مشتملا ببردة كاد العهد يبليها، بينما عهده ملوك الفرس أن لها سورا من الأحراس تحميها فوق الثرى، ورآه تحت ظل شجرة متدثرا بهذه البردة البالية، فقال فيما نظمه حافظ إبراهيم شاعر النيل ـ قال قولة حق أصبحت مثلا، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها، أمست لما أقمت العدل بينهم، فنمت نوم قرير العين هانيها.

عن الفاروق عمر بن الخطاب أحدثكم، هذا الصحابى الجليل الذى لم تغيره إمارة المسلمين وخلافة خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، تفه فى فمه طعم السلطة وفهم أنها واجب ومسئولية، لا صدارة ولا جاه ولا وجاهة ولا أبهة ولا ركوب على رقاب الناس . تستوقفه سيدة بسيطة وهو أمير المؤمنين، ويطول بينهما الحديث فلا يستعجلها، ولا يضيق بها صدره، فلما سأله رفقاؤه كيف أعطاها وأنصت لها كل هذا الوقت، راجعهم متعجبا كيف لا يتوقف وينصت لها وهى التى سمع الله حوارها لرسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم، وأنزل فى شأنها سورة المجادلة التى يقول جل وعلا فى بدايتها: " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ "(المجادلة /١)، وأتمت السورة أحكام الظهار فيمن يظاهرون من نسائهم

اشتراه الناس لأنفسهم يوم بايعوه بالخلافة أو بإمارة المسلمين، وتملكوه حين ملكوه، فعاش حياته فى خدمتهم، ولم يميز نفسه ولا آله بشىء، ولم يرتكب ما يحتمى من الناس بسببه، أو يحتاط لأجله منهم، فقتله بعض الناس وهو أفضل الناس لكى يوهب من ربه فرصة الموت من أحلهم فتتم آية الله فيه .

على أن المال لم يقتصر اتصاله بالدين على بذل القُرُبات، أو فى استخدامه للتعبير عن التدين والعواطف الدينية، وإنما بقى للمال - مع زهد هؤلاء الزاهدين الكرام - اتصال وثيق فى شأن توفير الخدمات الدينية . ولم يكن ذلك هو تكليف الإسلام فى أول عهده، فلم يُحَمِّل الجماعة الإنسانية نفقات خدمة دينية متخصصة، بل كان مُعْرضا عن ذلك، ولم يعرف ولم يقر كهانة، ورفض كل صور الوصاية على علاقة العبد بربه، ولم يجعل الكهانة وساطة بين الإنسان وبين خالقه، وإنما أحال الناس - فقط - إلى أهل الذكر فيما لا يعلمون . والملحوظ أن الإسلام منذ أول عهده قد حرص على جعل العلم هو فرض الكفاية على المسلم، وندب كل مسلم حاز قدرا كافيا من العلم بأحكام الدين للقيام بالخدمات الدينية العادية لنفسه، ولمن يحتاجون إلى معونته من أهله وعشيرته وإخوانه، بذلك صار كل مسلم حاز علما من أهل الذكر وإن لم يكن من أهل الكهانة، وصار عدد هؤلاء العلماء أضعاف عددهم فى الملل الأخرى، فكاد عددهم يتساوى مع عدد البالغين من المسلمين الذين كانوا جميعاً مجندين للدعوة والخدمة، ذلك لأن دين المسلم اتصال مباشر بلا واسطة بينه وبين الله، ولا تجوز فيه الإنابة إلا فى أحوال مستثناة للضرورة، كالحج عن المريض العاجز . ومع ذلك فإن اتساع رقعة بلاد الإسلام وعدد المسلمين، وتباين اللغات والعادات والظروف، وصوارف الحياة، أدى إلى ظهور التخصص والتفرغ فى

الخدمة الدينية، لا بدافع أو كستار للكهانة، وإنما للقيام بوظيفة أهل الذكر الذين يلجأ إليهم من لا يعلمون من دينهم ليتعلموا منهم ما يجبون معرفته .

وشيئا فشيئا نمت هذه التخصصات والفروع، وأنشئت دور العلم والفقه، وأوقفت الأوقاف للصرف عليها، وأجريت الأرزاق لطلاب العلم وللقائمين عليه، وصار للمال وظيفة ملحوظة فى توفير الخدمات الدينية .

على أن الإسلام لم يسمح قط بتفوق أو تصدر أو تسلط المال والمادية بعامة، ولا سمح بأن يطردا المثالية من الأرض، فهى قوة حيوية أقوى منهما سببا، تبقى حتى وإن ذوت ـ كامنة فى البذور، باعثة لآمال الناس، ومنها تنهمر أمطار الفضل والرحمة ـ من لدن الرحيم الكريم الجواد، فعادت هذه السنابل فنبتت ونمت وأينعت وأزهرت وأثمرت، حتى ملأت الأنفس بالنماء والرجاء .